ملخص كتاب
خلف أسوار المدرسة
تأليف: عمار سليمان
تلخيص: إبراهيم عز الدين

كثيرةٌ هي الكتابات في نقد التعليم النظامي، خاصةً في السنين الأخيرة، مع زيادة انتشار التعليم المنزلي والافتراضي (التعليم عن بعد) بظهور عدة منصات تتيح لمرتاديها مساقات تعليمية في الكثير من التخصصات المختلفة. لكن ما نلاحظه في تلك الكتابات النقدية أن أكثرها نتاج غربي أو مترجم عن اللغات الغربية، ولا غَرْو؛ إذ إن مبحث التعليم لا يقل شـــأنًا عن بقية المباحث الاجتماعية التي تقدم فيها الغرب وتخلفنا فيها بدورنا. ويأتي هذا الكتاب محاولةً لإثراء المحتوى العربي عن طريق تقديم **لمحة تاريخية عن نشأة التعليم النظامي، ونقده، وتقديم حلول بديلة له.**

نشأة التعليم النظامي .. أو قل: العسكري!

بدأت الدعوة إلى التعليم النظامي الموحد مع بدايات القرن الثامن عشـــر في بروســيا/ألمانيا بوازع عســكري في المقام الأول؛ فالحرب بين فرنسا وبروسيا كبَّدت الأخيرة خسائر فادحة عزاها الفيلسوف الألماني (فيشته) في حرية إرادة الجنود التي تجعلهم يفكرون في أنفسـهم أكثر مما يفكرون في الدولة. ومن هنا ظهرت دعاوى **التعليم الإلزامي** الذي برأي فيتشـه سينتج جنودًا على قلب رجل واحد في إخلاصـــهم لدولتهم، فيرى أن **التعليم يجب أن يدمر حرية الإرادة ويجعل الخريجين معدمي القدرة على التفكير أو التصـرف بطريقة غير التي تم تعليمهم إياها في المدرسـة، فيتم بذلك توحيد الشـعب وجعله أكثر انسـجامًا وانسـيابية مع الشـكل الرسـمي للدولة مع إمكانية قيادتهم بطريقة وديعة وتعليمهم الآداب المحافظة والمعتقدات المتوافقة وأيدلوجية الدولة.** وما لبث نظام التعليم العسـكري هذا أن أظهر نتائجه المرجوة بانتصـار بروسـيا على فرنسـا نابليون في 1815م لتبدأ الدول المجاورة ومنها فرنسـا نفسـها التطبيع مع نظام عسـكرة التعليم هذا ليتوسـع إلى باقي أوروبا وأمريكا ويشمل العالم كله تباعًا.

وقد لانت هذه العسكرة تدريجيًا وتوسعت مع التطور السياسي للدول، فأصبحت الدول الكبرى تريد الآن ليس فقط جنودًا أشـداء لكن عمالًا أقوياء ومواطنين صـالحين كذلك. ومن هنا ظهر تنوع المناهج والتخصـصـات المهنية الحديثة والتعليم الفني الصـناعي والزراعي وغيره. فتحول غالبية المواطنين من عنصـر بشـري إلى ترس رأسمالي عامل انتقل من عبودية المجتمع لتوه إلى عبودية المصـــنع والوظيفة البيروقراطية. ولا عجب في ظل نظامٍ موجهٍ أن **تقتل المدارس حس التفرد وحق التميز وتغتال التخيل والإبداع وتمارس القمع وفرض الصـــمت والحد من حرية التعبير** لدى الطلاب داخله. ولا يلزم أن تكون كل المدارس هكذا؛ ولكن تأخذ كل مدرسة بقدر ما تستطيع.

ولا تتوقف تبعات التعليم النظامي الســـلبية عند ذلك، فنجد في كثير من المجتمعات ارتباط المكانة المجتمعية بالإنتاج المادي، ومعروف أن ما يخدم الاقتصـاد في كل فترة تعيشـها الدولة مهن محددة أكثر من غيرها مثل الطب والهندسـة، ومن هنا كان الإقبال والتنافس عليها أكثر من غيرها سـعيًا لتأمين المسـتقبل الاجتماعي والمادي. وأصـبح تقييم الناس بعضـهم لبعض، ومعيار تفاضلهم الأول هو الدرجة "العلمية" التي يحملها الشخص وما يمتهن من وظيفة وما يحقق من ربح مادي.

ثلاث جبهات للحل

جبهة أولياء الأمور: التعليم المنزلي .. بين المزايا والعيوب

فرضَ التعليم النظامي قيودًا وهمية على المتصدرين للتعليم والإرشاد بشكل عام، وكأن العلم أصبح حكرًا على حملة الشهادات العليا، ولا يحق لأحد غيرهم أن يتكلم في أي مجال معرفي ما لم يحمل فيه شـهادة عليا. ومرتبط بهذا المفهوم تجاهل ما لم يتم تعلمه خارج المدرسـة، فكم سمعنا من أطفالنا تبرير الجهل بشـيء ما فقط لكونهم لم يتلقوه في المدرسـة بعد. أيضًـا فكثير من الأطفال والبالغين لا يملكون ثمن الحصـول على الشـهادات العليا، فهل نقصـيهم من الحياة بالكلية؟ **أليس التعلم حقًّا لكل أحد؟** أيضًا فلنفرض أن أحد ممن لم يحصل على شهادة في برمجة الحاسب مثلًا هو من المتميزين بين أقرانه في هذا المجال، **هل من الصحيح أن نسلبه الحق في ممارسة خبرته تلك لأنه لم يتحصل على قطعة من الورق تثبت هذا؟**

عندما أدرك البعض عيوب هذا النظام؛ بدأوا يتمردون عليه ويدعون إلى نظام جديد يتمثل في التعليم المنزلي، ولا غرو؛ **فالتعليم المنزلي (تعليم الشخص نفسه بنفسه تحت يد من هو أعلم منه لتوجيهه وإرشاده) كان هو الأصل قبل نشأة التعليم النظامي**. وتقوم فلسـفة هذا النظام على أن الناس يتعلمون من خلال حياتهم الواقعية وتجاربهم الحياتية، أما المدارس الإلزامية فأبعد ما تكون عن الواقع في كثير من الأحيان، وتتطلب المناهج وقتًا وجهدًا لتواكب متغيرات الحياة خصـوصًـا في زماننا المتسارع، ومن هنا كان التساؤل حول جدوى التعليم الإلزامي والتفكير في تجاوزه إلى التعليم المنزلي.

أهم مزايا التعليم المنزلي

- ✓ **إعاة شكل المنزل إلى طبيعته السوية**، فنؤمن للطفل أبوين متفرغين لتربيته وتعليمه في المقام الأول، وليس سد حاجاته الاستهلاكية وحسب. فيشارك الأبوان طفلهما في عملية التعلم ويحققان قدرًا من التواصل السوي معه.
- ✓ **التعليم المنزلي أبعد من كونه مدرسـة وإنما أسـلوب حياة**. فالطفل الذي يتعلم في منزله أقرب للحياة ومشـاكلها وتعقيدها الفعلي من طفل المدرسة الذي يقولب حله للمشكلات وفقًا للنموذج المدرسي، ويترك التعلم بعد التخرج.
- ✓ **التعليم المنزلي يحصل فردًا لفرد**؛ فيكون التركيز منصبًا على فرد واحد نستطيع معه وضع البرنامج الذي يريح الطرفين ويناسب كلًا منهما، مع إمكانية تعديله ومرونته المكانية والزمانية والتقييمية.
- ✓ **بيئة المنزل أكثر أمانًا وراحة من المدرسـة**، سـواءً من حيث الأثاث المريح وحرية الحركة وعدم التحديد بسـور أشـبه بسـور السـجن، أو قلة عدد الطلاب وسـهولة مراقبتهم، أو نظافة المرافق وتوفير الطعام الصـحي، أو الخلوص من معايرة الأقران والترهيب والتنمر.
- ✓ **الإشراف على غرس القيم الإيجابية** والتحرر من توجيه فكر الطفل وأدلجته.

أهم عيوب التعليم المنزلي

- **صعوبة اقتناء الأدوات الباهظة** التي تتكفل بها المدارس لعملية التعليم، خصوصًا إن كان الطفل من ذوي الاحتياجات، أو كانت تلك الأدوات مما يتعلق بالمعامل والمختبرات والمركَّبات الكيميائية إلخ.
- **نقص تعليم الأقران Peer Education**. فالطفل يميل إلى من هو قريب من عمره ويتعلم معه بشكل أسرع من غيره، وهو ما لا يتيحه التعليم المنزلي الذي يعتمد على الفردية وإرشاد من هو أكبر سنًا كالوالدين بطبيعة الحال.
- **تُعد المدرسة بيئة حيوية من منظومة اجتماعية متكاملة** من سوق العمل والتعاون والانخراط المجتمعي وما شابه ذلك بحيث يصعب تعويض خبراتها الاجتماعية منزليًا. كما أن **ذلك السياق المجتمعي المتسارع والمزدحم يُساعد الطفل على النمو بشكل أسرع اجتماعيًا ولغويًا**. ويمكن للآباء أن يتجاوزوا هذه المشكلة عن طريق إشراك أبنائهم في نشاطات خارجية كالأندية الرياضية ومعسكرات التخييم وحلقات تعليم القرآن إلخ.
- **نقص الكفاءات**، ويمكن تجاوز هذا نسبيًا بعمل ما يشبه الجمعية التعاونية حيث يشترك الآباء في تعليم الطلاب ما يُتقنُ كلٌ منهم من موادَّ علمية. ويمكن هنا كذلك الاعتماد على المنصات التعليمية الإلكترونية مع التوجيه والإرشاد.
- **فقدان الاعتراف الرسمي**، فالكثير من النشاطات الحكومية والأوراق الرسمية لا تُستخرج إلا بشهادة التعليم، أيضًا فالكثير من البلدان لا تتيح للطلاب أن يدخلوا الجامعة إلا وقد أنهوا المرحلة الثانوية. كذلك الحصول على وظيفة ذات أجر ثابت والتقدم للزواج إلخ. وهذه نقطة مهمة أخرى تُحسب لصالح التعليم النظامي.

جبهة المعلمين والمشرفين: إصلاح النظام من الداخل

لا شك أن من يروم الإصلاح من المعلمين داخل النظام الذي نعيبه نفسه عددٌ كبير. ولا شك أيضًا أن لهم دورًا هامًا في مواجهة ذلك النظام، وأن بأيديهم حلولًا حيوية تقلل من سطوته على الطلاب مثل:

- **تخفيف الواجبات المدرسية والتنويع في عملية التقييم** لتشمل عددًا أكبر من الأنشطة والوسائط. فلا شك أن الواجبات التقليدية عبء على الطلاب تثقل كاهلهم وتدخلهم في دوامة الإحباط وجلد الذات.
- **السماح بقدر من الحرية والحركة** داخل الفصل الدراسي وفي أنحاء المدرسة، وتوفير المساحات والأوقات اللازمة لذلك، وإشراك الطلاب في عملية التعلم التفاعلي المعتمد على الحوار والربط بالمعرفة الحياتية، ومحاولة توظيف المعرفة داخل وحدة متكاملة، واستخدام الوسائط التعليمية المختلفة من فيديو ومجسمات فيزيائية.
- **التقرب من الطلاب وفهم مشكلاتهم** وعدم قولبة الحلول المتاحة للتعامل معهم وشرح الدروس لهم. فكل إنسان يتعلم بطريقة مختلفة وربما تعيقه مشكلة لا يريد التحدث عنها ما لم يشعر بارتياح تجاه معلمه.
- **فهم نفسية تعلم الطفل** خلال مراحل نموه والاطلاع على أبحاث علم النفس والأعصاب في صدد عملية التعلم.

جبهة المسؤولين وصناع القرار: قصص ملهمة من الواقع

التجربة الفنلندية

من منا لم يسمع يومًا بالتعليم في فنلندا وكيف يتربع أولًا على عرش التصنيف العالمي، متفوقًا على نظيريه الأمريكي والياباني وغيرهما؟ هل تساءلت يومًا عن سر هذا النجاح، وكيف نشأت التجربة الفنلندية بدايةً وحافظت على مستواها طيلة عقود؟ دعنا نفتح هذا الملف معًا لنعرف تاريخه ومعالمه.

عانت فنلندا خلال القرن التاسع عشر من سطوة الاحتلال الروسي الذي أنهك البلاد وأثقلها بالديون، إلى أن استقلت عام 1917 لتدخل من توها في صراعات داخلية وحروب أهلية توجتها بدخول الحرب العالمية الثانية لتكمل نزيف الدم والموارد. وخلال الخمسينيات، بدأت الصحوة في فنلندا، وعلى رأسها إصلاح التعليم، فالتوجه نحو التعليم في فنلندا آنذاك كان محاولة لاستعادة الهوية التي تم سحقها جرَّاء الاستعمار والحروب. ولم تتبن فنلندا نظام التعليم البروسي المعتاد وقتها، بل أنشأت لنفسها نظامًا مغايرًا لا يهتم بالتقسيمات الطبقية أو تمايز الفئات العمرية أو مهارات العمل المحددة، بل كل ما كان يهم هو إعطاء الأطفال تعليمًا مناسبًا سرعان ما أصبح الأفضل على مستوى العالم. وفي البحث عن أهم عوامل نجاح التجربة الفنلندية نجدها تتلخص فيما يلي:

- ✓ توفر الدولة للمعلمين **حرية وضع الاختبارات بالطريقة التي يريدون**، وليس حسب معايير نموذجية جاهزة.
- ✓ **المكتبات العامة جذَّابة ومريحة** وتتوافر بها الأجهزة والكراسي سهلة النقل. كما يوجد داخل المكتبة مطعم لأخذ راحة إذا ما أراد الشخص أن يقضي يومه بأكمله في المكتبة.
- ✓ **صغر حجم الفصل الدراسي** مع عدم التحكم في تنظيمه، وهذا بدوره يعزز التفاعل بين الطلاب والمعلم. كما يتم **الاعتماد على وسائل التعلم التقليدية** كأقلام الرصاص والألوان، بينما نجد أجهزة العرض تستخدم في التدريس فقط. وهذا يساعد في تركيز عملية التعلم وتثبيت المعلومات خاصة عند الناشئين.
- ✓ **التعليم** عند كثير من الشعب الفنلندي **مقصود لذاته، وبدورها الحياة الأكاديمية**. فهو تعليم مدى الحياة متصل بها ولا ينعزل عنها أو يُوجه لخدمة أيدلوجيات بعينها. وأيًا كان توجه الحزب السياسي في فنلندا، فلن يحصل على الدعم المجتمعي ما لم يدعم العملية التعليمية في خططه المقترحة للإصلاح وما شابه.
- ✓ **المدرسة أقرب ما تكون للمنزل**، وبعض المدارس تُعلم الطبخ وتتيح للطلاب الحصول على الوجبات الساخنة.
- ✓ **عدد ساعات الدراسة أقل من الدول الأخرى**، ويُترك للطالب مع نهاية اليوم الدراسي حرية العودة إلى المنزل أو تأدية أنشطة إضافية في المدرسة. والترفيه في فنلندا ليس خروجًا من التعليم بل هو مرحلة مهمة منه.
- ✓ **يتنوع التقييم** بين الأنشطة الصفية التعاونية، والتقارير الشاملة نهاية السنة الدراسية، والاختبارت على مستوى الدولة، ولا يخضع الطلاب للاختبارات الإلزامية الدورية التقليدية.

خان أكاديمي

أمامنا قصة أخرى لمعلم ومرشد كان بيده قرار إنشاء نظام تعليم افتراضي موازٍ بدأ أساسًا لمساعدة ابنة عمه في تعثرها الدراسي، وسرعان ما ذاع صيته في العالم بأكمله وسمع عنه القاصي والداني. هذا المعلم هو سلمان خان المهندس الذي أسس أكاديمية خان الشهيرة والتي ألهمت عدة منصات تعليمية أخرى لتسير على نفس المنوال. تقوم فلسفة الأكاديمية ببساطة على شرح المفاهيم العلمية في فيديوهات قصيرة متدرجة التعقيد مسجلة ومرفوعة على منصة إلكترونية، بحيث يُشاهد الطالبُ الفيديو ويستوعبه لينتقل إلى المفهوم الأكثر تعقيدًا في الفيديو التالي له، والذي يعتمد كليةً على الذي قبله، وهكذا. ويتميز هذا النظام بعدة مزايا منها:

- ✓ أنه يمنح الطلاب حرية سماع المحاضرات/الفيديوهات حسب الوقت الذي يناسبهم في المكان الذي يرتاحون فيه، كما يرفع عنهم الحرج أمام زملائهم إذا أعادوا سماع المحاضرات المسجلة أكثر من مرة حتى يستوعبوها جيدًا.
- ✓ إمكانية إيقاف الفيديو واستكماله بعد مدة .. وبشكل عام: **التعليم عن بعد مرن أكثر**، وكلما اعتمدنا على التكنولوجيا، قللنا التكلفة والوقت والجهد، وحصلنا على إمكانيات أكبر وأكثر كفاءة.
- ✓ أنه يمكن للمعلم في الصف التقليدي أن يرشد الطلاب بعد الدرس إلى محاضرات أو فيديوهات معينة على الإنترنت يُشاهدونها تكملةً لموضوع الدرس أو للإثراء المعرفي، بل يمكن له أن يوجههم إليها من البداية بحيث تكون هي الدرس، وتكون الحصة الدراسية بعدها داخل الصف حصة تفاعلية لفك إشكالات التعلم وتصحيح المفاهيم الخاطئة وتأدية التمارين والنقاش التفاعلي بين المعلم وطلابه حول موضوع الدراسة. كما يُعطي هذا المعلمَ فرصةً للعمل مع الطلاب الذين يحتاجون المساعدة الفردية المباشرة بدلاً من أن يشرح لجميع الطلاب بنفس الأسلوب ونفس السرعة. أيضًا فالطلاب الذين يستوعبون بسرعة يمكنهم العمل مع من يتعثر من زملائهم الآخرين فنستفيد من تعليم الأقران.

إذًا في النهاية، وكما يتضح لنا، فتبني نظام واحد من المذكورين دون البقية لا يحقق نتائج كاملة. والحل النهائي يكمن في **تكامل النماذج التعليمية المختلفة وتحقيق التوازن بينها قدر المستطاع**، إذ لا غنى عن التعليم النظامي ولا فكاك منه ما دام هو الموقف الرسمي للدولة مع سهولة توفير الكفاءات والأدوات وفرص الحياة، فقط يمكننا سياسته على النحو الذي لا يضر بأبنائنا أو يحبطهم أو يعيق نموهم الطبيعي أو يحد من حريتهم أو يحجم من خياراتهم في الحياة. أيضًا فلا بديل عن التعلم المنزلي المستمر، أطفالًا أو راشدين، لنضمن مواكبة العصر ونحقق السواء الأسري ونضمن غرس القيم الإيجابية وما يهم تعلمه حقًا في أنفسنا. ولا شك أن أحد أهم عوامل نجاح العملية التعليمية هو إشراكنا للتعليم عن بعد بُغية الاقتصاد في الموارد وتحقيق نتائج تعليمية أكثر كفاءة. وفي الختام، ننهي بمقولة للكاتب الأمريكي مارك توين يقول: **"لن أسمح أبدًا للمدرسة بأن تكون عقبة في طريق تعلُّمي"**